وَرقة من تاريخ الاستشراق في ألمانيا:

كارل بروكلمان ١٨٦٨ - ١٩٥٦

بقلم يوهان فوك

لم يكن من طبع بروكلمان أن يثير ضجة كبيرة حول نفسه وأعماله، فعندما احتفلت جامعة هاله عام ١٩٤٨ بعيد ميلاده الثمانين وذكرت فى تهنئتها له جليل أعماله فى خدمة الاستشراق، أجاب مذكرا الحاضرين أن مصير جميع الابحاث العلمية أن يتفوق عليها تقدم المعرفة العلمية وقال إن العادة هى أنه بعد مرور خمسين عاماً على وفاة الباحث يصبح كل ما كان صحيحاً ثابتاً من أبحاثه تراثاً عاماً للبحث العلمى، بينما تذهب اخطاؤه ضحية للنسيان. إن مثل هذا الرأى يبدو مفاجئاً حين ينطق به رجل أغدق عليه بالوافر الكثير من آيات التقدير والاعتبار — فقد كان عضو شرف فى جمعية المستشرقين الألمانية والجمعية الاسيوية الملكية والجمعية الاسيوية والجمعية الشرقية الامريكية والجمعية اللغوية الامريكية، كما كان عضواً نظامياً فى أكاديمية العلوم السكسونية، وعضواً مراسلا لسلسلة من الاكاديميات والجمعيات العلمية، ومنح عام ١٩٥١ الجائزة الوطنية من المرتبة الأولى — ومع ذلك فإن رأيه ذاك كان مميزاً للموضوعية الصافية الخالية من أى وهم التى كان بروكلمان ينظر بها لأعماله الخاصة ولأعمال غيره أيضاً. ولذا فمن الضرورى لكى نفهم قوة فاعليته أن نتنبه دوماً للعلاقة الداخلية التى كانت تربط عمله الفردى بكل مستوى من مستويات البحث العلمى، وخاصة أنه شهد ثلاثة أعمار بشرية تقريباً وأنه كان منذ الثمانينات شاهداً على الازدهار الكبير الذى مر به الاستشراق.

ولد بروكلمان فى السابع عشر من سبتمبر من عام ١٨٦٨ لعائلة ميسورة معتبرة من طبقة التجار فى مدينة روستوك. وقد أعزى ميوله العلمية لأمه، التى كانت امرأة خصبة الفكر عرفته بكنوز الأدب الألمانى. وظهرت موهبته للغات بسرعة فى المدرسة الثانوية ولاقى تشجيعاً خاصاً من مدرس علم اللغة الألمانية ك. نيرغر K. Nerger. وأثار نيرغر، الذى كان قد ألف كتاب قواعد لتاريخ لهجة مكلنبورغ أثار حماس بروكلمان الشديد لدراسة الألمانية السفلى، بحيث ظل طيلة حياته يتابع باهتمام شديد مراحل التقدم فى هذا الحقل. ومع هذا الحب الشديد للوطن كان يتمتع بحب غريب للاقطار البعيدة كانت تغذيه قصص الرحلات الاستكشافية فى اجزاء العالم المجهولة بحيث نشأت فى نفس الصبى رغبة ملحة فى أن يجوب العالم سواء كطبيب بحرى أو مترجم أو مبشر. وكان هذا هو الدافع الذى حدا به إلى الاستماع إلى درس العبرية الذى كان يعطيه نيرغر؛ وقد ذكر بافتخار أنه استطاع فى امتحان الشهادة الثانوية النهائى أن يترجم مقطعاً غير مشكل من سفر عاموس (العهد القديم) دون أى إعداد سابق. وتعرف فى المدرسة أيضاً إلى لغة الكتاب المقدس الآرامية وإلى السريانية كذلك. وحين التحق بجامعة روستوك بعد عيد الفصح عام ١٨٨٦ قرر أن يدرس اللغات الكلاسيكية والتاريخ إلى جانب الاستشراق. وكان مدخله إلى العربية والاثيوبية والقواعد المقارنة للغات السامية على يدى المستشرق فريدرش ڤيلهلم مارتن فيليپى، F. W. M. Philippi. وبدافع من فيليپى ذهب بعد عيد الفصح من عام ١٨٨٧ إلى بريسلاو للدراسة على فرانتز پريتوريوس Franz Praetorius الذى كان عالماً ممتازاً بلغات الحبشة. ودرسه زيجموند فرنيكل S. Fraenkel لغة التلمود. وراح يدرس اللغة التركية التى كان تدريسها لا يزال نادراً فى ألمانيا، راح يدرسها لوحده.

وحسب نصيحة فيليپى وپريتوريوس مضى بروكلمان فى عام ١٨٨٨ إلى ستراسبورغ للدراسة على يدى تيودور نولدكه. والى جانب ذلك راح يدرس السنسكريتية والأرمنية لدى عالم اللغات الإندو — جرمانية هاينريش هوبشمان Heinrich Hübschmann. وجذبته كذلك دراسة الحضارة المصرية القديمة فراح يحضر محاضرات دوميشن Dümichen، الذى كان عالم آثار بالدرجة الأولى

بحيث أهمل علم اللغة. وقد أسف بروكلمان كثيراً لعدم عثوره على استاذ قدير فى هذا الحقل، إذ أن العلاقات القائمة بين اللغات السامية ولغات شرقى وشمالى أفريقيا ظلت تشغله طيلة حياته. واشترك كذلك بتمارين قراءة النقوش التى كان يديرها مدير مكتبة جامعة ستراسبورغ فيما بعد، يوليوس أويتينغ Julius Euting، الذى كان أحسن عارف بتاريخ الكتابة السامية وخبيراً ممتازاً بالنقوش.

وفى شتاء عام ١٨٨٩ وضع نولدكه مسابقة كان الواجب فيها دراسة العلاقة بين «الكامل» لابن الاثير و«أخبار الرسل والملوك» للطبرى. واستطاع بروكلمان أن يحل هذه المسألة ونال فى التاسع من ابريل عام ١٨٩٠ درجة الدكتوراة فى الفلسفة. وبعد ذلك بقليل فاز فى امتحان الدولة — وكان قد حضر فى ستراسبورغ كذلك محاضرات عالمى اللغات الكلاسيكية ليو Leo وكايبل Kaibel، وعالم الآثار ا. ميشائيلس A. Michaelis، والمؤرخين ك. ى. نويمان K. J. Neumann وپاول شيفر- بويشورست Paul Scheffer-Boichorst وباومغارتن Baumgarten وكذلك الفيلسوف ڤندلباند Windelband، وبدأ يعمل منذ اول اكتوبر فى المدرسة الثانوية الانجيلية فى ستراسبورغ كمساعد مدرس. والى جانب ذلك واصل دراساته العربية ونشر عام ١٨٩١ بدافع من نولدكه الترجمة الألمانية للجزء الاول من ديوان لبيد التى أتمها انطون هوبر Anton Huber قبل وفاته المبكرة، ثم أصدر الجزء الثانى من الديوان بالمتن والترجمة استناداً إلى العمل التحضيرى الذى كان قد أعده هوبر وهاينرش توربيكه H. Thorbecke.

ولم يدم عمله فى المدرسة الانجيلية طويلا؛ وبما أنه لم يكن يرغب فى العمل فى مدرسة خارج ستراسبورغ، فقد قرر العمل فى التدريس الجامعى، فذهب فى نهاية عام ١٨٩٢ إلى بريسلاو وحصل على درجة الكفاءة للتدريس الجامعى فى ١٨٩٣/١/٢٨ بدراسة تاريخية أدبية عن مؤلف ابن الجوزى التاريخى.

وفى هذه الأثناء كان بروكلمان قد جمع بنشاط كبير مادة لأول مؤلف كبير له وهو المعجم السريانى Lexicon Syriacum. وكان تأليف قاموس للسريانية آنذاك مهمة مطلوبة: فقد كان المعجم السريانى لكاستيلوس Castellus المطبوع عام ١٧٨٨ قد نفد منذ زمن طويل وأصبح قديماً، كما أن معجم المفردات السريانية Thesaurus Syriacus الذى كان فى سبيله إلى الطباعة منذ عام ١٨٦٨ لمؤلفه ر. پين سميث R. Payne Smith، كان يحتوى



المستشرق كارل بروكلمان

اشيـاء كثيرة لا تهم أغلب المحتاجين له ولا تفيـدهم. وفى فترة قصيرة جداً لا تتجاوز الثلاثة أعوام استخرج بروكلمان مفـردات «بيشتا» و «أفرات» و«افريم» وراح يقـرأ نصوصاً كثيرة غيرها ليتمم عمله. وتكسب الشروح والتعليقـات هذا المؤلف قيمة خاصة حيث أنها تستند جميعاً إلى جمع من عمل المؤلف الخاص. وظهرت ميوله اللغوية فى بعض الإشارات الخاصة بتاريخ المفردات وتطورها. وفوق ذلك فقد أفرد فهرساً لاتينياً سريانياً. وساهم كل ذلك فى تفضيل الكتاب من الناحية العلمية على قامـوس J. Bruns, Dictionarium Syriaco-Latinum الذى صدر فى الفترة نفسها فى بيروت.

وقبل أن يطبع المعجم السريانى Lexicon Syriacum فى شهر شباط من عام ١٨٩٥ طلب إدوارد زاخاو Eduard Sachau من بروكلمان أن يساهم فى العمل على مؤلف ابن سعد الضخم وأن يسافر إلى لندن واستانبول لدراسة المخطوطات المتعلقة بذلك. وهكذا سافر فى شهر اغسطس عام ١٨٩٥ إلى لندن وانتقل من هناك فى شهر سبتمبر إلى باريس ومرسيليه وأثينا وأزمير ومن ثم إلى

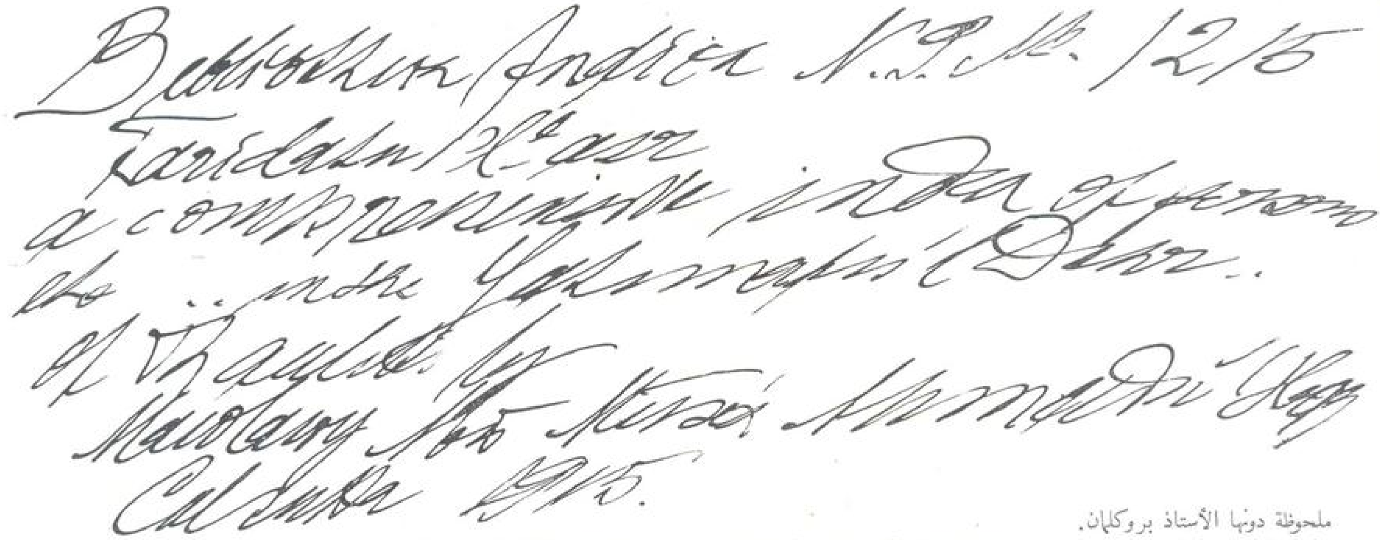
استانبول حيث امضى الشتاء هناك. ولم يقم بتنفيذ ما كلف به فحسب، وإنما نقل نسخة من عيون الاخبار لابن قتيبة وأخذها معه. وفي نهاية شباط (فبراير) عام ١٨٩٦ عاد بطريق البر إلى بريسلاو.

واهتمت أكاديمية برلين بطباعة مؤلف ابن سعد، وظهر المجلد الثامن الذي اشتغل عليه بروكلمان عام ١٩٠٤. أما أمر إصدار نسخة عيون الأخبار فقد كان عليه أن يتعهد به بنفسه ووجد في شخص إ. فيلبر E. Felber في ڤايمار ناشراً كان مستعداً للقيام بتكاليف النشر إذا ما ترك له بروكلمان في الوقت نفسه أمر كتاب آخر كان تصريفه يعد بأكثر من مثل هذا المتن العربي الذي لن يهم إلا عدداً قليلا من المكتبات والاختصاصيين. وكان هذا هو الدافع الخارجي لتأليف ذلك الكتاب الذي اعتمدت عليه شهرة بروكلمان العالمية وهو تاريخ الأدب العربي Geschichte der arabischen Literatur (GAL) وكان قد رسم الخطة لتأليف ذلك العمل منذ زمن طويل. وكان يعلم أنه كان من المستحيل إزاء المستوى الذي بلغه البحث العلمي آنذاك أن يتمكن المرء من عرض مجرى التطور الداخلي للأدب العربي والمؤلفات العربية؛ ومع ذلك فقد كان عدد النصوص المطبوعة بمقارنتها بمجموع المؤلفات العربية عموماً ضئيل لا يذكر، والأقل من ذلك هو عدد تلك المؤلفات التي جرى تحقيقها ودراستها فعلا. وإلى جانب ذلك ظهر بغضه لجميع المؤلفات المتعلقة بتاريخ الأفكار التي تفتقر إلى الأساس اللغوي الثابت. وهكذا فقد قرر كشرط لا غنى عنه لجميع الأبحاث والدراسات المقبلة للأدب العربي والمؤلفات العربية أن يقدم عرضاً كاملا لجميع المؤلفات الإسلامية باللغة العربية المتوفرة حتى الآن مع استبعاد المؤلفات الصادرة باسماء مغفلة والتي لا تحمل تاريخاً لتأليفها، مع اثبات جميع المخطوطات والمطبوعات وتبيان أماكنها واعطاء نبذات مختصرة عن سير مؤلفيها. وفي عام ١٨٩٧ صدر النصف الأول من المجلد الأول، وفي عام ١٨٩٨ تلاه النصف الثاني، وفي ١٩٠٢ صدر المجلد الثاني وتم المؤلف بذلك.

إن ما مكن بروكلمان من القيام بهذا المشروع الهائل وتنفيذه حسب خطة مدروسة وفي حدود ما يمكن تحقيقه عملياً هو ذاكرته الممتازة التي كانت تحفظ بأمانة كل ما كان يقرأ — وكان يقرأ كثيراً وبسرعة —، ويضاف إلى ذلك قدرته على التنظيم والتنسيق التي كانت تحيل التفاصيل الكثيرة المتجمعة إلى كل معقول، وأخيراً فإن الفضل في ذلك يعود كذلك إلى براعته وموهبته في التعبير عن افكاره بعبارات سلسَة دون عناء وفي سيولة بحيث كانت المسودة التي يخطها تصلح في الغالب للطبع مباشرة. وبذلك كان يعتمد اثناء تأليفه ذلك العمل الجبار على ذاكرته إلى حد بعيد؛ وما كان بوسعه أن يعمل بسرعة لو أراد أن يتحقق ويفحص كل دقيقة وكل تفصيل على حدة، بغض النظر عن أن كثيراً من المصادر التي كان يستقي معلوماته منها لم تكن متوفرة دوماً بين يديه. ومن الطبيعي أنه لم يكن بالوسع تجنب الاخطاء والسهو في مثل طريقة العمل هذه على كتاب يزخر بالأسماء والسنوات والأرقام، بحيث أن بروكلمان نفسه أدرك ذلك وكان ممتناً لكل تصحيح. ولكن أهمية عمله الحقيقية لم تتأثر بهذه النواقص مهما بلغ مدى تشويشها على القارىء، إذ أن تقديم عرض لحقل كان يشبه حتى ذلك الحين أدغالا كثيفة لا يمكن اختراقها لم يكن يتوقف على التفاصيل الصغيرة، وقد أحسن بروكلمان باهماله اولئك النقاد الذين أرادوا أن يقيسوا هذا العمل الجبار بنفس المقياس الدقيق الذي تقاس به مقالة علمية. ومن الطبيعي أن نصف المجلد الأول الذي تناول الفترات المعروفة جيداً من الأدب والتأليف العربي كان أبعد من أن يكون ملائماً لتوضيح فكرة هذا الكتاب، بحيث أن النقاد الحسنى النوايا لم يستطيعوا أن يولوه التقدير الصحيح. ولكن عندما صدر تاريخ الأدب العربي (GAL) بكامله أصبح فوراً أداة لا يستغنى عنها لكل مستشرق مهتم بالعربية.

وفي ربيع عام ١٩٠٠ استحضر زاخاو Sachau بروكلمان كمدرس للعربية في معهد اللغات الشرقية في برلين. وكان عليه أن يدرس هنا اللهجة المغربية بدلا من آغوست فيشر August Fischer الذي استدعى إلى لايبزغ، واستطاع بروكلمان القيام بدراسات عملية في اللهجة المغربية مع المحاضر الظلالي من الرباط. وفي صيف العام نفسه أصبح استاذاً خارج الملاك في ايرلانجن على إثر وفاة لودڤيج آبل Ludwig Abel، وقدم له على إثر ذلك أيضاً منصب استاذ خارج الملاك في بريسلاو على إثر انتقال هـ. تزيمر H. Zimmer إلى لايبزغ، فأختار بريسلاو.

وكان بروكلمان يدرك دوماً واجب تيسير نتائج العلوم والابحاث للقراء غير الاختصاصيين بلغة مفهومة وسهلة. وهكذا فقد قدم في المجلد الأول من مؤلفه الجامع: «آداب الشرق ١٩٠١» „Die Literaturen des Ostens"، «تاريخ الادب العربي» Geschichte der arabischen Literatur وذلك بصيغة مختصرة، وقد اعيد طبعها للمرة الثانية



ملحوظة دونها الأستاذ بروكلمان.
وأرسل الأستاذ أنطون شبيتالر (جامعة ميونيخ) مشكوراً صورتها الأصلية إلينا مزودة بامضاء بروكلمان المنشور على ص ٨٧.

عام ١٩٠٩. وقد أوحى إليه باصدار «تاريخ الآداب المسيحيـة فى الشرق» Geschichte der christlichen,, Literaturen des Orients" فى المجلد السابع من السلسلة نفسها، وعالج فيه الأدب السريانى والمسيحى العربى. وقد سعى بعد ذلك إلى وصف المجموعة الصغيرة من المخطوطات الشرقية فى مكتبة مدينة بريسلاو فى «فهرس» خاص عام ١٩٠٣. وفعل الشئ نفسه فى الاعوام القادمة بالنسبة لمجموعة المخطوطات الشرقية الاكثر أهمية فى مكتبة هامبورغ.

وفى ربيع عام ١٩٠٣ استدعى بروكلمان ليحتل مقعد الاستاذية النظامى فى كونيجسبرج Königsberg بعد أن أصبح خالياً بسبب استقالة جوستاف يان G. Jahn. وهنا ألف ذلك العمل الذى يعتبر اكثر اعماله أصالة والذى كان أحب أعماله جميعاً إلى نفسه وهو: «موجز قواعد اللغات السامية المقـارنـة» Grundriß der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen. (2 Bde, 1907—13)

وكان قد تعرف على يدى هوبشمان على طرق البحث الخاصة بالوضعية التاريخية اللغوية، التى أصبحت سائدة دون منازع منذ نشوب النزاع بين علماء اللغة الشباب فى حقل اللغات الإندوجرمانية. وقد وجدت هذه النظرية التاريخية اللغوية أن طبيعة اللغة تكمن فى عملية النطق الفردية وفسرت العلاقات القائمة بين اللغات المتقاربة بافتراض أن أصوات اللغة الأصلية قد تطورت ضمن لهجة معينة وخلال عصر لغوى معين حسب قوانين صوتية ثابتة لا شواذ لها، وأن الشواذ الظاهرة للقوانين الصوتية المفترضة يجب أن تفهم على اساس انها تراكيب قياسية تعتمد على التداعى السيكولوجى لمعانى الكلمات. وقد طبقت هذه النظرية التاريخية اللغوية فى اللغات السامية بالدرجة الأولى فى بحث اللغات المفردة كل على حدة، بينما كانت الدراسات التى تتناول جميع اللغات أو عدة لغات، كأبحاث پاول دى لاجارد P. de Lagarde وى. بارت J. Barth مثلا، كانت لا تزال تخضع لتصورات فلسفة لغوية رومانتيكية تسعى إلى الاستدلال على المعانى الأصلية لأشكال الكلمة بطرق منطقية شكلية. أما بروكلمان فقد استخدم الطريقة التاريخية اللغوية لأول مرة بشكل منظم فى دراسة جميع اللغات واللهجات السامية، بالقدر الذى كانت معروفة فيه آنذاك، وعرض فى موجزه الخالد مادة زاخرة وشواهد كثيرة عرضت بتنسيق وشرحت شرحاً يعتمد على طريقة علمية منظمة. وتجنب بكثير من الموضوعية أى تحيزات قد تجر إليها عقيدة عدم الشواذ فى القوانين الصوتية ونظرية التطور التى تستند إلى التصورات البيولوجية، ووصف فى عصر كان النزاع فى اللغات الإندوجرمانية على أشده فيه حول ما يدعى بالوطن الأصلى للإندوجرمانيين، وصف محاولة إعادة تركيب لغة أصلية كشبح وهى لم يعد العلماء والباحثون الحقيقيون يسعون جادين فى البحث عنه. إن ما أثار اهتمامه هو بالذات كان مجرد تطور وصيرورة كل من اللغات فى وضعها التاريخى، فكان يرى من الضرورة لهذا السبب فقط أن يستعين بالاصطلاحات القريبة من اللغة المدروسة لغرض المقارنة، لأنه لا يمكن أن تجعل لغة ما مفهومة من خلال عباراتها وحدها فقط ودون الاستعانة بغيرها ولأن قوانين تطور اللغات فى الأزمنة التاريخية ظلت ثابتة لم تتغير. وكان بروكلمان يدرك أن موجزه لا يستطيع أن يعطى جواباً ثابتاً لجميع الأسئلة المطروحة، وصرح إنه لن يسعده شيء اكثر من إصدار طبعة ثانية من هذا الكتاب بعد تنقيحه من أساسه. ولكن

هذا الأمل لم يتحقق، إلا أنه كان يسجل دون كلل جميع ملاحظاتـه وتصحيحاتـه فى نسختـه اليدويـة، تلك التصحيحات والملاحظات التى بدت له ضرورية لإصدار طبعة جديدة منقحة؛ وتشير مقالاته حول المسائل المتنازع عليها فى اللغات السامية واشتقاقاته المصرية الساميـة وتقريظاته للكتب أنه كان مطلعاً على التقدم فى علم اللغات وأنه كان يسعى إلى السير خطوة خطوة مع هذا التطور والتقدم. ولذا فقد كان يتمتع فى دوائر علماء اللغة أيضاً باعتبار كبير؛ وقد دعى للاشتراك فى المؤتمر الخاص بالتسجيل الصوتى والكتابة الصوتية الذى عقد فى ابريل عام ١٩٢٥ فى كوبنهاغن، كما أنه مثل ألمانيا عدة اعوام فى لجنة اللغويين الدولية الدائمة (CIPL).

وإلى جانب الموجز، فقد ألف بروكلمان فى موجز قواعد اللغات السامية المقارنة فى Porta linguarum orientalium (Bd. 21) عام ١٩٠٨ كتاباً تعليمياً عالج فيه علم الأصوات وقواعد الصرف واقتطف الشواهد والأمثلة فيه من اللغات الأدبية. وفى عام ١٩٠٦ كان قد عرض أهم الحقائق المتعلقة باللغات السامية فى كتيب صغير من دار Göschen بصورة واضحة ومفهومة تحت عنوان «علم اللغات السامية» Semitische Sprachwissenschaft. وقام ويليام مارسيه William Marçais ومارسيل كـوهين Marcel Cohen عام ١٩١٠ بترجمة الكتاب إلى الفرنسية وإعداده ليتلاءم وحاجات الدارسين الفرنسيين الخاصة، كما أن النسخة الألمانية اعيد طبعها مرة ثانية عام ١٩١٦. وفى العشر سنوات الأخيرة من عمره قام بروكلمان بتحضير طبعة جديدة تتلاءم ومستوى البحث العلمى الحاضر، وأراد أن يراعى اللغة الأوغارية بالدرجة الأولى؛ إلا أن مشروعه هذا لم يتحقق.

ولتفهم المسائل التاريخية اللغوية فقد اعتبر بروكلمان اللغة السريانية ذات ملاءمة خاصة بين اللغات السامية الكلاسيكية. ولذا فقد عالج فى قواعد اللغة السريانية الذى صدر فى بادئ الأمر عام ١٨٩٩، عالج قواعد الأصوات بتفصيل خاص ثم كان يعود إليها دوماً اثناء علاجه لقواعد الصرف لإيضاح خصائص التراكيب الصرفية على ضوء التطور التاريخى اللغوى. ومن الطبيعى أن عدداً كبيراً من القراء الذين كانوا يتعلمون السريانية لأهمية أدبها بالنسبة لتاريخ الكنيسة فقط كانوا على استعداد للاستغناء عن التفسيرات اللغوية العلمية، إلا أن بروكلمان رفض كلياً فكرة تأليف كتاب للقواعد من وجهات نظر عملية تطبيقية خالصة. ومن الجهة الاخرى فقد كان يحسب منذ البداية حساباً خاصاً لرغبات الدارسين اللاهوتيين بحيث جمع فى منتخبات القراءة التى تمثل النواة الحقيقية لكتابه والتى اختيرت من الأدب الكلاسيكى فقط لأسباب تاريخية لغوية، لقد جمع نصوصاً تبين تطور الكنيسة السريانية من البداية حتى الانشقاق. وهكذا انتشر الكتاب بسرعة ومر حتى عام ١٩٥١ بخمس طبعات ونقل معارف طريقة البحث التاريخية اللغوية حتى إلى الدوائر البعيدة عن علوم اللغة.

واتيحت له فرصة استخدام الطريقة نفسها بالنسبة للغة العربية عندما كلفته هيئة Porta linguarum orientalium إعادة تنقيح كتاب ألبرت سوسين Albert Socin فى قواعد اللغة العربية (ابتداء من الطبعة الخامسة عام ١٩٠٤). ومنذ الطبعة السادسة قدم قسما خاصاً حول قواعد الاصوات كان يعود إليه دوماً فى القسم الخاص بقواعد الصرف. وأزال القطع التى وضعت لترجمتها إلى الألمانية لاعتقاده بأن مثل هذه القطع تلائم قواعد للمحادثة ولكنها لا تتناسب وعرضاً للغة الادبية الكلاسيكية. ولهذا السبب نفسه فقد قاوم فكرة تقسيم المادة إلى دروس صغيرة حسب وجهات نظر عملية تطبيقية. وكسب الكتاب بين يديه شيئاً فشيئاً طابع القواعد العلمية. وابتداء من الطبعة الحادية عشرة (١٩٤١) أخذ الكتاب يحمل اسمه. وبثلاث عشرة طبعة بلغ الكتاب شهرة وانتشاراً لم يحققهما أى كتاب آخر من هيئة Porta linguarum orientalium ومع أن بروكلمان لم يكتب قواعد صوتية وصرفية للغة العبرية إلا أنه عقد عشرات المرات حلقات دراسية للتمرن على القواعد العلمية للغة العبرية لتعريف طلاب اللاهوت بالدرجة الأولى على طرق بحث اللغات السامية المقارنة التى لم يتوقف عن نشرها قط والتى كان يحزن لإهمالها فى الجامعات الألمانية.

وفى صيف عام ١٩٠٩ توفى زيجموند فرينكـل Siegmund Fraenkel فى بريسلاو. وعاد سلفـه بريتوريوس Praetorius، الذى كان قد استدعى إلى هاله عام ١٨٩٣، عاد الآن إلى جامعة بريسلاو. وبذلك أصبح المقعد الجامعى فى هاله خالياً وقدم لبروكلمان الذى قبله بسرور وخاصة أن مكتبة جمعية المستشرقين الألمانية ستقدم له امكانيات دراسية أفضل وأوسع. وفوق ذلك فقد كان قد تزوج عام ١٩٠٩ ولم تكن زوجته قادرة على تحمل مناخ كونغسبرغ. وفى هاله أنهى موجزه، الذى ظهر قسمه الثانى الذى يتناول علم الإعراب وتركيب الكلام ما بين ١٩١١ و١٩١٣. وفوق ذلك راح يحضر

الطبعة الثانية من معجمه السرياني. إلا أن الحرب العالمية الأولى أعاقت العمل كثيراً، وظلت طبعات النصوص الصادرة في الخارج بعيدة عن متناول يده وبدأت تجد طريقها بعد الحرب تدريجياً إلى المكتبات الألمانية. ورغم أن طباعة المعجم بدأت فعلا عام ١٩١٨ وأمكن تقديم القسم الأول عام ١٩٢٣، إلا أن المعجم لم ينته بكامله إلا عام ١٩٢٨. وبمقارنة هذه الطبعة الثانية بالطبعة الأولى فانها تبدو عملا جديداً تماماً بضعف الحجم وبشروح وتعليقات جديدة وكثيرة. وقد وسعت الشواهد المتعلقة بالاشتقاقات التاريخية بحيث يمكن اعتبار المعجم خطوة عملية تمهيدية لقاموس مقارن للغات السامية يمكن أن يصدر في المستقبل.

لقد كانت الظروف اكثر ملاءمة لدراسات بروكلمان في حقل اللغة التركية منها في حقل الدراسات السريانية، وخاصة أنه طبع أثناء الحرب العالمية الأولى في استانبول أهم عمل عربي — تركي في حقل علم اللغة وهو كتاب: ديوان لغات الترك الذي ألفه محمود بن الحسين الكاشغري بين ١٠٧١ و١٠٧٣ ميلادى. ويحتوى سجل لغات الترك هذا عدداً زاخراً من الأخبار والروايات عن لهجات الشعوب التركية لأواسط آسيا في العصر الوسيط. ولكن الكتابة العربية غير الملائمة مطلقاً لتسجيل الأصوات التركية وتعابير النحويين العرب التي استخدمها الكاشغري للغة التركية ذات الطابع المختلف تماماً عن العربية، كانا عائقين شديدين أمام أية محاولة للاستفادة من هذا الكنز الثمين لدراسة تاريخ اللغة التركية. ولذا فقد شرح بروكلمان لفائدة وخير علماء التركية الذين لا يلمون الماماً حسناً بالعربية، شرح اول الأمر عرض الكاشغري لتركيب الافعال التركية (في المجلد الثامن عشر من مجلة Kéleti Szemle لعام ١٩١٩)، ثم حقق ما يحتوى عليه الديوان من بقايا الشعر الشعبي التركستاني القديم وكذلك الحكم الشعبية التركستانية القديمة وكرس لذلك عدداً من الدراسات الأخرى ولكنه بذل مجهوداً خاصاً في كتابة جميع الكلمات التركية الواردة في «الديوان» بالحروف اللاتينية وترجمة شروح الكاشغري العربية إلى اللغة الألمانية، مضيفاً لكل كلمة عدداً من الشواهد والشروح التاريخية اللغوية والاشتقاقية. وهكذا نشأ بالتدريج كتابه المرتب حسب الحروف الأبجدية: «المفردات التركية الوسيطية حسب ديوان لغات الترك لمحمود الكاشغرى» ,,Mitteltürkischer Wortschatz nach Maḥmūd al-Kāšgarī's Dīwān lugāt at-Turk'' ذلك الكتاب الذى طبع عام ١٩٢٨ بمساعدة الاكاديمية المجرية للعلوم كمجلد أول من المكتبة الشرقية المجرية ''Bibliotheca Orientalis Hungarica,, وكمواصلة لهذه الأبحاث رسم بروكلمان خطة لكتابة تاريخ اللغات التركية المكتوبة. ونفذ من هذه الخطة كتابه: «قواعد اللغة التركية الشرقية للغات الادبية الاسلامية لأواسط آسيا» من عام ١٩٥١ حتى ١٩٥٤.

,,Osttürkische Grammatik der islamischen Literatursprachen Mittelasiens''. وعالج في هذا الكتاب تاريخ الأصوات وعلم تكوين وتصريف العبارات التي استخدمتها قبائل اواسط آسيا التركية في الأدب منذ دخولها الاسلام في القرن العاشر وحتى فقد استقلالها السياسي.

ان الفترة الأولى لنشاط وفعالية بروكلمان في جامعة هاله تمتد من ١٩١٠ حتى ١٩٢٢. وقد احتل ذروة الحياة في تلك الأعوام. وقد حقق لنفسه بانجازاته الفردية الخاصة اسماً لامعاً في الدراسات السريانية والعربية وعلوم اللغات السامية واللغات التركية — وهى حقول كانت مع تقدم التخصص العلمى آخذة بدورها في الاستقلال كل بمفرده كعلم خاص ذى نظام قائم بذاته. وبفضل ثقة زملائه الذين انتخبوه رئيساً للجامعة في يوليو عام ١٩١٨، وقعت على عاتقه مهمة ذات مسئولية كبيرة وهى قيادة مصير الجامعة في فترة انتقالية عسيرة. وفى مايو عام ١٩١٩ حيا اعضاء الجامعة العائدين في ميادين القتال بخطاب طبع بعنوان «اعادة البناء».

وفى هذه الاثناء كان مقعد التدريس الجامعى الذى كان يحتله ادوارد زاخاو لا يزال خالياً منذ انتهاء خدمات الأخير، كما تصادف أن أصبح مقعد التدريس في القسم الشرقى بجامعة بون خالياً عام ١٩٢١ كذلك. وعرض المقعدان على بروكلمان، الذى قرر قبول منصب برلين لأنه كان يرجو أن يجد فيها ظروف عمل أفضل منها في أية جامعة ألمانية أخرى وأن يجد المراجع الاجنبية التى لا يستغنى عنها لأبحاثه ودراساته المقبلة. إلا أن الآمال التى نشأت في نفسه أثناء المفاوضات حول قبول مقعد برلين لم تتحقق. فلم يستطع الانتقال إلى برلين واضطر أثناء فترة هبوط النقد الألمانى إلى السفر إليها كل اسبوع لبضعة أيام وذلك طيلة فصلين دراسيين. وكان اكثر ما خيب ظنه أن غرف المعهد التى وعد بالحصول عليها قدمت لفرع دراسى آخر. ولكى يتجنب مواقف شاذة أخرى كهذه فقد تخلى بعد عام واحد عن منصب الاستاذية في برلين وعاد كخلف لاستاذه بريتوريوس في جامعة بريسلاو، حيث أمضى على حد تعبيره «سنوات جميلة

من الناحية الإنسانية»، إلا أنه ظل يعانى من الافتقار إلى المراجع الاختصاصية، ذلك الافتقار الذى اشتكى منه فى مقدمة تاريخ الادب العربى (GAL). وفى صيف عام ١٩٣٢ انتخب رئيساً للجامعة. وفى فترة رئاسته حدثت مظاهرات الطلاب النازيين ضد الاستاذ الحديث التكليف «كـون» مما ادى إلى اغلاق الجامعة لمـدة ثلاثة أيام. وبما أن بروكلمان سعى جاهداً إلى حماية الحرية التعليمية الجامعية، فقد راحت الصحافة النازية تهاجمه بشدة بحيث اضطر أخيراً إلى التخلى عن رئاسة الجامعة فى شهر مارس عندما تسلم النازيون زمام الحكم.

وفى خريف عام ١٩٣٥ احيل بروكلمان على التقاعـد وانتقل فى ربيع عـام ١٩٣٧ إلى هـالـه ثانية، لأنه أراد أن يستخدم مكتبة جمعية المستشرقين الألمانية لأبحاثه وخاصة لمواصلة العمل على تاريخ الأدب العربى. وكان، كعادته، قد جمع فى نسخته اليدوية جميع التصحيحات والتصويبات والتتمات المتعلقة بتاريخ الأدب العربى، التى توصل إليها منذ عام ١٨٩٧. وكان الاحب إلى نفسه والافضل إلى الدارسين لو أنه تمكن من إصدار طبعة ثانية من العمل الضخم؛ ولو تم له ذلك لما تمكن من تصحيح بعض الاخطاء والسهو فحسب، بل وكذلك من مراجعة بعض احكامه على المؤلفين العرب، ومن تحسين خطة وتنظيم الكتاب بكامله أيضاً، ولو تم ذلك لنشأ كتاب جديد تماماً. ولكن بما أن مطالب ورثة الناشر فيلبر جعلت إصدار طبعة ثانية أمراً مستحيلاً، فقد نشر بروكلمان المادة المجموعة الاضافية فى مجلدين ملحقين ضخمين صدرا عامى ١٩٣٧ و١٩٣٨ عن دار بريل فى لايدن. وفى الاربعين عاماً التى مضت منذ صدور الكتاب الأصلى كان الادب العربى الحديث قد تطور بشكل هائل، وكان بروكلمان قد اهتم اهتماماً كبيراً به أيضاً. وهكذا فقد استطاع عام ١٩٤٢ إصدار ملحق ثالث عالج فيه تاريخ الأدب العربى الحديث من عام ١٨٨٢، وهو عام الاحتلال البريطانى لمصر، حتى الوقت الحاضر. وكما فعل فى المؤلف الأصلى والملحقين فقد احتفظ فى الملحق الثالث أيضاً بعرض لسير المؤلفين؛ ولكن بينما اكتفى هناك بتعداد المؤلفات، قدم هنا معلومات تفصيلية عن محتويات المؤلفات المختلفة، وأشار إلى المثل العليا الأدبية وسجل ملاحظات تتعلق باللغة والاسلوب ولم يتحفظ فى احكامه على الأعمال الجارى بحثها. ولم يخف شيئاً من تعاطفه مع الاتجاهات السياسية لشعوب الشرق الأدنى ضد الاستعمار الأوروبى وضد

الاستبداد المحلى بحيث كان يتمتع باعتبار كبير فى العالم الاسلامى بسبب موقفه هذا. وكان على اتصال دائم بالمراسلة مع عدد كبير من شعراء وكتاب وعلماء الشرق، وقد سر قبل وفاته حين علم بأن القسم الثقافى بجامعة الدول العربية قرر نشر الترجمة العربية لتاريخ الأدب العربى وملحقاته.

وللتعرف على الخلفية السياسية الثقافية للأدب العربى الحديث فان بروكلمان لم يهتم بدراسة الاسلام فى الوقت الحاضر بتعمق فحسب، بل وراح يدرس تاريخه بنفس التعمق أيضاً. ويعود اهتمامه بالأبحاث الاسلامية إلى سنوات دراسته فى ستراسبورغ. فمن عام ١٨٩٥ حتى عام ١٩١٤ كان يكتب عن أحدث المؤلفات فى التاريخ الاسلامى فى التقارير السنوية لعلوم التاريخ وفى عام ١٩١٠ قدم فى المجلد الثالث لتاريخ العالم الذى أصدره يوليوس فون پفلوك-هارتونغ Julius von Pflugk-Hartung عرضـــاً لتاريخ الإسلام منذ بدايته حتى العصر الحاضر (من الصفحة ١٣١ حتى ٣١٩). والآن وبعد مضى ربع قرن على ذلك عاد إلى هذا العمل القديم من جديد واعاد تنقيحه وأضاف له فصلا عن «النظام الجديد للدول الاسلامية بعد الحرب العالمية الثانية» صور فيه الأحداث حتى بداية عام ١٩٣٩. وبذلك نشأ كتاب تاريخ الشعوب والدول الاسلاميـة Geschichte der islamischen Völker und Staaten وظهر عام ١٩٣٩ كجزء من المجموعة التى أصدرتها دار نشر ر. أولدنبورغ عن تاريخ الدول. ونظراً لاتساع إطار التاريخ الإسلامى الهائل الذى امتد عبر ثلاثة عشر قرناً وانتشر فوق ثلاث قارات فقد كان العمل ينطوى على جرأة كبيرة وخاصة أن المصادر لم تكن معروفة بعد بالنسبة لحقول كثيرة فيه، فضلا عن معالجتها واستخدامها بطريقة نقدية علمية. وكان سد هذه الثغرات يفوق طاقات مؤلف بمفرده. ومن الجهة الأخرى فقد استطاع جمهور القراء غير المختصين والمهتمين بالسياسة العالمية أن يتوقع بحق الحصول من رجل اختصاصى على نظرة عامة تتمشى ومستوى البحث العلمى الحاضر عن التاريخ الاسلامى. وكما هو الحال مع بروكلمان دوماً، فقد استغنى هنا أيضاً عن جميع الحقوق فى الاولوية وتمسك فى المسائل المتنازع عليها مستغنياً عن أى بحث للموضوع بأولئك الثقاة الذين اعتبرهم الأفضل فى رأيه. وأبرز من بينهم ى. ڤلهـاوزن J. Wellhausen ول. كيتانى L. Caetani بالنسبة لتاريخ العرب وف. بارتولد W. Barthold وف. مينوركسى V. Minorsky لتاريخ آسيا الوسطى

و ب. ڤيتك P. Wittek لتاريخ الدولة العثمانية. وبأصالة وحذق مألوفين استطاع أن يمد أمام القارئ خضما كبيراً من الحقائق التاريخية منسقة بشكل قابل للاستيعاب، كما راعى فى ذلك الحضارة والحياة الفكرية، وتخلى عن كل التفاصيل التى لا داعى لها وأفسح مجالا كافياً للتطورات التى حدثت منذ عام ١٨٠٠. وجاء الكتاب ليلبى حاجة ملحة واعيد طبعه ثانية عام ١٩٤٣. وهناك ترجمة انجليزية تمت خلال الحرب العالمية الثانية دون علم بروكلمان وظهرت عام ١٩٤٧ (واضيف إليها عرض للأحداث التى جرت من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤٧، اتخذ مؤلفها م. پيرلمان M. Perlmann فيها موقفاً من القضية الفلسطينية مغايراً لموقف بروكلمان). واعيد طبع هذه الترجمة الانجليزية (دون مراجعة پيرلمان) عام ١٩٤٩ فى لندن. ثم ظهرت فيما بعد ترجمات فرنسية وعربية وتركية وبولونية.

وكأستاذ متقاعد فى بريسلاو اضطر بروكلمان عام ١٩٤٥ إلى القيام بمنصب أمين مكتبة جمعية المستشرقين الألمانية بصورة مؤقتة؛ واهتم منذ ذلك الحين بتصنيف وترتيب الكتب المكدسة. وفى صيف عام ١٩٤٧ أصبح استاذاً فخرياً وحصل فى العام نفسه على مقعد الاستاذية فى اللغات التركية حسب رغبته. وراح يدل طلابه على مبادئ اللغة التركية الحديثة ويقرأ معهم فصولا تاريخية عثمانية قديمة، ويفسر لهم الوثائق التركية ويحاضرهم فى تاريخ الدولة العثمانية. وإلى جانب ذلك فقد كان يلقى محاضرات فى التعريف بالسريانية والاكدية والاثيوبية والقبطية وكان يفسر المصادر السريانية المتعلقة بتاريخ الاسلام، والنصوص العبرية الأرامية، والنقوش السامية الشمالية، ومختارات من رسائل العمارنه، والنصوص الميثولوجية والتاريخية الأكدية. وكان يعقد كذلك حلقات دراسية كثيرة للتمرن على قواعد اللغات السامية المقارنة.

وكما يظهر هذا العرض فقد أخذ بروكلمان أثناء نشاطه التعليمى — وكان قد ألقى وعقد ما يقارب الخمسمائة محاضرة وحلقة تعليمية — أخذ بنظر الاعتبار رغبات مستمعيه حتى وإن كان الامر يتعلق بحقول قلما عالجها فى مؤلفاته أو لم يعالجها قط. وهكذا فقد كان يقيم حلقات دراسية كثيرة لتعليم الاكدية والفارسية الحديثة، واحياناً الفارسية الوسطى والأرمنية. وكان فى المحاضرات يجيب بكل طيب خاطر على جميع الأسئلة التى كان طلابه يوجهونها له ولم يكن يتقدم فى المحاضرة إلا بعد التأكد من زوال أى غموض أو صعوبة. أما خارج محاضراته فقد كان منغمساً فى أبحاثه وأعماله العلمية، بحيث قلما تجرأ طلابه على توجيه أى سؤال له. وإذا ما حدث وسأله أحد رغم ذلك، فان بروكلمان كان يلقى عليه الجواب فوراً بكل ما يتعلق بالموضوع من تفاصيل وبكل دقة بحيث يمكن أن يرسل جوابه للطبع فوراً. أما السبب فى عدم تكوينه مدرسة خاصة به فيكمن فى طبيعة شخصيته كباحث، تلك الشخصية التى جمعت بانسجام فريد من نوعه ذاكرة ممتازة، وقدرة خارقة على التنظيم والتنسيق، وموهبة للفهم السريع، وقدرة على حسن تقدير ابعاد عمل أو بحث معين، بالإضافة إلى ارادة حديدية وطاقة خارقة على العمل والانتاج. وقد عرف مقدراته خير معرفة وكان يستخدمها خير استخدام. وكان عمله اليومى منظماً بكل دقة وصرامة، ولكنه كان يترك لنفسه أيضاً ساعات للراحة والاسترخاء. وفى اعوام حياته الأولى كان يسافر كثيراً فى الاجازات وكان يحب البحار ويستمتع بالتجوال.

وفى صيف عام ١٩٥٣ احيل بروكلمان للمرة الثانية على التقاعد، ولكنه واصل نشاطه التعليمى. وفى ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٥٤ أصيب بزكام لم يستطع أن يتخلص من مضاعفاته فيما بعد. وراح يواصل العمل محاطاً برعاية زوجته الثانية، متابعاً أبحاثه بالقدر الذى كانت تسمح به حالته الصحية. وبمساعدة أحد مستمعيه الأخيرين، الدكتور كونراد فون رابناو Dr. K. von Rabenau استطاع أن يتم كتاب قواعد الصرف العبرى Hebräische Syntax الذى ظهر بعد وفاته. وفى السادس من مايو عام ١٩٥٦ فاضت روحه عائدة إلى خالقها بسلام.

وقد أهدى قواعد الصرف العبرى لقسم اللاهوت فى جامعة هاله شكراً على منحه لقب الدكتوراه الفخرية فى اللاهوت أثناء يوبيل الجامعة لعام ١٩٥٢. وهى العمل الوحيد الذى يحمل إهداء باستثناء اطروحة الدكتوراة التى أهداها إلى والديه.

وفى عصر أصبحت فيه الدراسات الاسلامية وعلوم اللغات السامية واللغات التركية وعلوم الشرق المسيحى علوماً مستقلة ذات اهداف وطرق بحث قائمة بذاتها مع موجة التخصص العلمى المستمرة التى لا تعرف التوقف، فى هذا العصر الذى أصبح فيه كل من هذه الفروع حقلا واسعاً يكفى لملء حياة عالم بكاملها، استطاع بروكلمان أن يمثل فى شخصه وفى انتاجه وعلى أتم وجه وحدة علم الاستشراق. وقد عنت وفاته نهاية عصر بكامـلــه.

ترجمة: محمد على حشيشو